قصة الطفل:
أهدافها ومقوماتها الأساسية(*)

لأدب الأطفال ـ مثله مثل أدب الكبار ـ فنونه المختلفة، وهي جميعاً لها أهميتها في تكوين شخصية الطفل وبلورة مفاهيمه ومساعدته على التكيّف مع المجتمع الذي يعيش فيه.

والقصة أحدهذه الفنون، ولعلها أقدم فن أدبي عرفه الإنسان منذ العهود الموغلة في القدم، حيث وجدت في معظم الآداب القديمة، وتحتل في الوقت الحاضر مركزاً مهماً في الأدب الحديث.

وكان لتطور المجتمع الإنساني، وبروز الاتصال بين المجتمعات البشرية عن طريق الحروب والغزو تارة، وعن طريق الزواج والمصاهرة تارة أخرى، أثر كبير في انتقال القصص من مكان إلى مكان، ومن مجتمع إلى مجتمع آخر. أما في العصر الحديث، فإن القصص التي يتم تناولها في أعمال أخرى كالأعمال المسرحية والسينمائية والإذاعية، تقوم بدور كبير في نشر هذا اللون الأدبي، وفي تأدية القصة لكثير من الوظائف والأهداف ذات الأهمية والشأن في حياة الإنسان.

وقصص الأطفال تتميز عن قصص الكبار بعدة سمات، على الرغم من أن قصص الأطفال وقصص الكبار تشترك في كثير من الوجوه البنائية والشكلية، وكذلك من حيث المقومات التي يجب أن تتوافر في القصة مهما كانت فئة الجمهور التي كتبت له، مثل الموضوع والحبكة والشخصيات... إلخ.

والقصة من الفنون القديمة التي وجدت في أدب الأطفال، عرفت منذ أن وجد أدب موجه للطفل، أو أدب قراءة الأطفال واستمتعوا به منذ أكثر من ثلاثة قرون. ولعل القصص التي يطلق عليها الآن «روائع أدب الأطفال» أو «روائع قصص

(*) نشرت بمجلة الناشر العربي، ع16، 1990.

الأطفال» دليل كاف على ذلك. ولا تزال القصة تحتل المرتبة الأولى في الإنتاج الفكري الموجه للأطفال على اختلاف أعمارهم وباختلاف لغاتهم. ويرى بعض الخبراء أن استمتاع الطفل بالقصة يبدأ منذ الوقت الذي يستطيع فيه الطفل «فهم ما يحيط به من حوادث، وما يذكر له من أخبار، وذلك في أواخر السنة الثالثة من عمره. فهو على صغر سنة ينصت للقصة القصيرة التي تناسبه، ويشغف بسماعها، ويطلب المزيد منها»[1].

أهداف القصص الموجهة للأطفال:

القصص الموجهة للأطفال تحمل أهدافاً متنوعة ومختلفة. فقد تكون هذه القصص ذات هدف تربوي تعليمي، أو قد تكون لهدف إكساب الأطفال المعلومات والحقائق والمعارف، أو قد تكون لهدف التسلية والترفيه والترويح، أو ربما يكون هدفها الوعظ والإرشاد والتوجيه، أو غير ذلك من الأهداف الأخرى التي يرى كاتب القصة أنها ذات أهمية في حياة الطفل، ومن ثَمَّ يستخدم القصة لغرسها في نفوس الأطفال.

ويمكن القول بأنه مهما كان هدف القصص المقدمة للطفل، فإن هذه القصص يمكن أن تقدم للأطفال أشياء عن الماضي البعيد، ويمكن أن تمدهم بخبرات وتجارب من الحاضر، وتُعدّهم لخبرات المستقبل، وتعمل على مساعدتهم في تنمية المعرفة والفهم، وتكوين القيم والمعتقدات والآراء الفردية لكل طفل منهم؛ ويمكن أيضاً أن تمنح القصة الطفل معرفته بنفسه وتساعده على إنماء علاقته وفهمه لغيره من الناس الذين يعيشون معه في بيئته[2].

ونتيجة لأهمية القصة من الناحية التربوية، فقد دعا التربويون إلى إدخال القصة في المناهج المدرسية، خاصة المدرسة الابتدائية. ويدخل الآن سرد (حكاية) القصة في معظم المدارس الابتدائية في البلدان العربية، حيث دخلت القصة منهج اللغة العربية، وأصبحت أحد عناصره، «فجعل لها في جدول الدراسة

---

(1) عبد العزيز عبد المجيد. القصة في التربية. ط7. القاهرة: دار المعارف بمصر، 1976، ص9.

(2) Sheila Ray. Children's Librarianship. London: Clive Bingley, 1979, P.38.

ثلاث حصص في الأسبوع»[1]. ولم تقتصر حصص القصة على دروس اللغة العربية والدين، بل أصبحت في بعض المدارس جزءاً من بعض المواد الأخرى مثل مواد الأشغال اليدوية والرسوم، حيث يقوم المدرس بسرد إحدى القصص على تلاميذه، ثم بعد ذلك يطالب التلاميذ بالتعبير عما سمعوه بالرسم أو بالأشغال اليدوية[2].

وقد اختار الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (1712 ـ 1778) قصة «روبنسون كروزو» ليكون أول كتاب يقرأه ابنه «إميل» لأنه في رأيه يزوده بأفضل رسالة في التربية الطبيعية، بل إنه جعل هذه القصة الكتاب الوحيد الذي تضمّه مكتبة ابنه لفترة طويلة من الزمن، والكتاب الذي يحتل مكاناً بارزاً في كل وقت. ويقول روسو عن هذا الكتاب بأنه «المتن الذي لا تكون أحاديثنا حول العلوم الطبيعية غير شرح له، وسيتخذ دليلاً في أثناء تقدمنا نحو حسن الرأي وستروقنا مطالعته دائماً ما ظل ذوقنا غير فاسد»[3]. ويرى روسو أن مثل هذا الكتاب ـ روبنسون كروزو ـ بإمكانه أن يزود الطفل بخبرات تربوية كبيرة لها دورها في حياة الطفل واكتسابه لمهارات الاعتماد على النفس، والتعلُّم من الخطأ، ومعرفة الأمور التي يحتاج إليها الطفل حتى يشق طريقه في الحياة بثبات وجدارة[4]. ويرى معظم علماء التربية أن هذه الآراء وغيرها التي جاءت في كتاب روسو المسمى إميل أو التربية، إنما هي تعبير عن آراء هذا الفيلسوف في مجالات التربية والتعليم التي نادى بها في عصره، ولا تزال بعض المدارس التربوية الحديثة تتبناها في الوقت الحاضر.

وتعتبر القصة أحب الفنون الأدبية للأطفال، لما تحمله من خيال وعجائب يندهش لها عقل الطفل. فالقصة فن أدبي شائق «فيه جمال ومتعة، وله عشاقه الذين ينتقلون في رحابه الشاسعة الفسيحة على جناح الخيال، فيطوفون بعوالم بديعة فاتنة أو

---

(1) عبد العزيز عبد المجيد، ص36.

(2) نفس المصدر، ص37.

(3) جان جاك روسو، إميل أو التربية. ترجمة عادل زعيتر. القاهرة: دار المعارف بمصر، 1956، ص317.

(4) نفس المصدر، ص318.

عجيبة مذهلة، أو غامضة تبهر الألباب وتحبس الأنفاس، يلتقون بألوان من البشر والكائنات والأحداث، تجري وتتابع، وتتألف وتتقارب، وتفترق وتتشابك، في اتساق عجيب وبراعة تضفي عليها (روحاً) آسرة وتشويقاً طاغياً»[1]. ولأجل ذلك يتعلق الأطفال بالقصة ويقبلون على قراءتها والاستماع إليها، ويتتبعون حوادثها ويعيشون مع أبطالها سواء كان هؤلاء الأبطال من البشر أم من المخلوقات العجيبة أو الجماد، ويثيرهم ما بها من خيال وسحر، فنجدهم يتجاوبون مع أبطالها، وكثيراً ما يحاولون القيام بالأعمال التي قام بها بطل القصة الذي أصبح موضع إعجاب وتقدير، وربما مثلاً أعلى للطفل، يحاول أن يقتدي به ويقلد أعماله وطريقة حديثه وتصرفاته.

والقصص قد تتخطى أبعاد الزمان والمكان فتنقل الأطفال في رحلة طويلة عبر العصور المختلفة، أو تتجاوز بهم الحاضر إلى المستقبل، وتنقلهم إلى أماكن مختلفة سمعوا عنها من قبل، وأماكن لم يسمعوا بها ولم تخطر لهم على بال، وقد تتخطى الواقع فتجعل «الأطفال أمام حوادث ووقائع وشخصيات وأجواء خارج نطاق الخبرة الشخصية للأطفال، وتهيّئ لهم الطوفان على أجنحة الخيال في عوالم مختلفة»[2].

وتدل العديد من الدراسات التي أجريت في مجال أهمية القصة للأطفال على أن للقصة دوراً كبيراً في تثقيف الطفل، وفي تكوين العديد من القيم والمثل لديه، وفي تزويده بثروة لغوية يستخدمها في فهم ما يقرأه فيما بعد. كما أن للقصة، خاصة في المراحل الأولى للطفولة، دوراً مهماً من حيث معالجتها لبعض المشكلات التي قد يعاني الطفل منها؛ مثل مشكلة تكيّفه مع العالم الذي يعيش فيه، أو أنها تمنح الطفل فرصة لكي ينفّس عما يشعر به من رغبات مكبوتة في داخله ولا يجد سبيلاً للتنفيس عنها بسبب عوامل متعددة. وقد تكون القصة دافعاً للطفل مشجعاً له على الاشتغال بالعلم ابتكاراً وإبداعاً واختراعاً أو تطويراً، كما هو الحال في قصص

---

(1) أحمد نجيب. فن الكتابة للأطفال. ط2. بيروت: دار اقرأ، 1983، ص72 ـ 73.

(2) هادي نعمان الهيثي. ثقافة الأطفال. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1988، ص182. [سلسلة عالم المعرفة].

الخيال العلمي التي يذكر الكثيرون أنها كانت سبباً لكثير من الاختراعات العلمية التي نراها في وقتنا الحاضر.

عناصر والقصة مقوّماتها:

أي عمل قصصي سواء كان موجّهاً للأطفال أم للكبار لا يستوي ولا يكون ذا قيمة إلاّ إذا توافرت فيه عوامل أو عناصر أساسية معينة، أو ما يسمى بالمقومات الأساسية للقصة، وهي التي يمكن اتخاذها في كثير من الأحيان معايير للحكم على القصة وتقدير قيمتها. ومن بين المقومات الأساسية للقصة ما يلي:

1 ـ الموضوع أو الفكرة الرئيسية: وموضوع القصة هو فكرتها الأساسية التي تدور حوادث القصة في إطارها. ويمكن أن يكون الموضوع موضوعاً عاماً؛ كالصداقة أو الشجاعة مثلاً، ويمكن أن يكون موضوعاً دقيقاً أو محدداً اختاره المؤلف لأهميته أو قيمته عند القارئ. ويشكّل حسن اختيار الموضوع الخطوة الأولى في نجاح أي عمل قصصي. وهناك كثير من القصص التي لا تحتوي على موضوع عام أو محدد، كقصص المغامرات أو القصص المازحة، أو كبعض القَصَص التاريخي الذي يكتب لإلقاء الضوء على شخص، أو حركة، أو فترة زمنية[1]. ومن حيث اختيار الموضوعات التي تتناسب مع الأطفال من حيث الخصائص التي تميز الطفولة في كل مرحلة من مراحلها المختلفة؛ الخصائص النفسيةوالعاطفية والعقلية... إلخ، وأن يكون الموضوع الذي تتناوله القصة موضوعاً قيماً وجديراً بأن يقدم للأطفال. ويرى البعض أن «أفضل ما يقدم للأطفال من القصص قصص تنطوي أحداثها على حقائق تستحق أن تخلد، وتلهم الحياة الشعورية الداخلية للإنسان، وهي تلك التي لا تحيي في الأطفال العواطف الحمقاء أو الشعور الواهي، بل تكوّن فيهم دقة الشعور ورقة الإحساس»[2]. وهذه القصص يمكن أن تعمل على مساعدة الأطفال في فهم العواطف والمشاعر الإنسانية والمشاركة فيها، وتزودهم بقيمة احترام الحياة الإنسانية

---

(1) Zena Sutherland and May Hill Arbuthnot. Children and Books. 5th.ed. Glenview, Illinous: Scott, Foresman and Compary, 1977, p.26.

(2) علي الحديدي. الأدب وبناء الإنسان. طرابلس: الجامعة الليبية، 1973، ص120 ـ 121.

وتقديرها، ومن ثم تقدير حياة المخلوقات الأخرى، والابتعاد عن احتقار الأشياء الغامضة في الإنسان أو بقية المخلوقات[1].

2 ـ الحبكة: وحبكة القصة هي ما يحدث من حوادث فيها، ومفهوم الحبكة «أن تكون حوادث القصة وشخصياتها مرتبطة ارتباطاً منطقياً يجعل من مجموعها وحدة ذات دلالة محددة»[2]. وبمعنى آخر إن الحبكة أساساً هي سلسلة من الحوادث تحدث في تسلسل مترابط نحو نهاية منطقية مقنعة، وإذا لم تكن هناك حبكة، فإن الكتاب قد يحتوي على سلسلة من الحوادث العرضية تحل محل الحبكة[3].

والحبكة تعتبر عنصراً مهماً في كل عمل قصصي لكونها «الخيط الذي يمسك بنسيج القصة وبنائها معاً، ويجعل القارئ تواقاً إلى متابعة قراءتها»[4]. والحبكة الجيدة لأي عمل قصصي هي تلك الحبكة المنسوجة بعناية كبيرة ودقة ومهارة فائقة، التي توافرت فيها عدة سمات، مثل ارتباط أحداث القصة وشخصياتها، وما تقوم به من أعمال ارتباطاً منطقياً مقنعاً، وأن تنتهي أحداث القصة إلى عقدة يشعر القارئ بالسعادة والرضا وهو يتابع حل هذه العقدة الذي هو نهاية العمل القصصي، وأن تكون الحبكة قابلة للتصديق وأصيلة ومعقولة الوقوع[5]. ومن الواجب مراعاة البساطة في حبكة القصة الموجهة للأطفال بحيث لا تحتوي القصة على حوادث متشابكة وتعقيدات قد لا يستطيع الطفل فهمها، أو ربما يضيع في خضمها، ويجب أن تكون حبكة القصص الموجهة للأطفال الصغار محتوية على مشكلة واحدة كلما أمكن ذلك، وعلى عدد محدود من الشخصيات التي تعمل لوضع حل لهذه المشكلة أو العقدة، وكذلك فإن أحداث القصة يجب أن تكون ذات علاقة بعضها ببعض في تسلسل منطقي مفهوم[6]. واحتواء الحبكة القصصية للصغار على مشكلة

---

(1) نفس المصدر، ص121.

(2) عز الدين إسماعيل. الأدب وفنونه. ط5. القاهرة: دار الفكر العربي، 1973، ص185.

(3) Zena Sutherland, P. 24.

(4) علي الحديدي، ص117.

(5) نفس المصدر.

(6) Joan I. Glazer. Literature for Young Children. Columbus, Ohio: Charles E. Merrill Publishing Company, 1981, P. 11.

واحدة أو عقدة واحدة يأتي نتيجة أن الأطفال ليس لديهم الإدراك الكافي الذي يمكنهم من متابعة أكثر من مشكلة أو عقدة في العمل القصصي الواحد، وكذلك فإنهم لا يستطيعون فهم القصة المركبة، أو أن يرجعوا إلى أحداث وذكريات حدثت في العصور القديمة زماناً ومكاناً[1].

3 ـ الشخصيات: والشخصيات في قصة الطفل يجب أن تكون طبيعية، وأن تكون مقنعة للقارئ وقابلة للتصديق، قريبة من الواقع قدر الإمكان في نموها وتصرفاتها وحديثها بطريقة تتمشى مع عمرها وجنسها وثقافتها وأصلها وتربيتها، «وألاّ يكون في تصرفات الشخصية الواحدة ما يتناقض مع حقيقتها، إلا إذا قصد الكاتب ذلك لأسباب خاصة»[2]. والشخصيات في القصة على نوعين؛ شخصية نامية أو متطورة، وشخصية ثابتة. فالشخصية النامية أو المتطورة هي التي تنمو وتتطور مع حوادث القصة فتبدو حقيقية تعيش الحياة، والكاتب الجيد بإمكانه جعل شخصيات قصته تنمو وتكبر وتتطور وتتغير أمام أعين قارئيه وسامعيه، وهو قادر على جعل هذا التطور والنمو متدرجاً ومقنعاً حتى يتفق مع واقع الحياة الطبيعية[3].

أما الشخصية الثابتة فهي التي لا تتغير في تكوينها في كل مراحل القصة، على الرغم من امتلاكها لخصائص فردية محددة ومرسومة بدقة ووضوح كامل، وكمثال على الشخصية الثابتة شخصيات السندباد وعلاء الدين، وجحا. وفي كثير من القصص تنمو الشخصيات وتتغير نتيجة لما يحدث لهم، إلاّ أنه من الصعب جعل شخصيات تتغير في الكتب الموجهة للأطفال الصغار، وذلك بسبب أن هذه القصص في العادة قصيرة ولا تحتمل شخصياتها عملية التغيير أو النمو الذي ينتج عن مجموعة من الحوادث والعناصر التي تحتاج إلى وقت طويل[4].

والمطلوب في قصص الأطفال أن تكون الشخصيات واضحة، وأن لا يزيد عددها عن مستوى قدرة الطفل على التذكر والاستيعاب. وإذا كانت الشخصيات

---

(1) علي الحديدي، ص118.

(2) عبد العزيز عبد المجيد، ص22.

(3) علي الحديدي، ص123.

(4) Joan I. Glazer, P. 11.

واضحة في أفعالها وتصرفاتها ومقنعة للقارئ الصغير، فإنها تبقى في ذاكرته فيعرف عنها الشيء الكثير؛ ما تحبه هذه الشخصيات وما تكرهه، كيف تتصرف في مواقف معينة، وما هي خصوصيات هذه الشخصية أو تلك . . . . إلخ.

4 ـ الزمان والمكان: وهو ما يسمى ببيئة القصة الزمانية والمكانية. والمقصود ببيئة القصة الزمانية والمكانية هو متى وأين حدثت وقائع القصة؛ فهي إذن زمان ومكان حوادث القصة. وعناصرها تتمثل في الموقع الجغرافي الذي يمكن أن يكون منطقة واسعة مثل بلد أو مدينة كبيرة، أو قد يكون مكاناً صغيراً كمزرعة، أو ربما كفصل دراسي أو بيت في قرية. والزمان قد يكون فترة تاريخية تستمر لعدة قرون أو عقود، أو فصلاً من فصول السنة ـ الربيع، الخريف ـ أو يوماً واحداً[1]. وكما يمكن أن يكون المكان بلداً مترامي الأطراف أو مدينة أو قرية أو بيتاً صغيراً معروفاً وله اسمه الذي يدل عليه أو يشتهر به، فقد يكون المكان أيضاً مكاناً خيالياً لا وجود له على أرض الواقع ماضياً أو حاضراً؛ وكما يمكن أن يكون زمان القصة الماضي البعيد والقريب أو الحاضر، فقد يكون أيضاً المستقبل كما هو الحال في قصص الخيال العلمي أو ما يسمي بقصص المستقبليات. ومن الأمور المطلوبة فيما يتعلق ببيئة القصة الزمانية والمكانية أن هذه البيئة يجب أن تكون واضحة ويمكن تصديقها، وفي حالة قصص السير والتراجم يجب أن تكون أصلية. وحيثما يكون زمان القصة ومكانها، فإن القارئ يجب أن يمنح الفرصة لمعرفة نمط وأسلوب الحياة السائدة في تلك الفترة أو ذلك المكان؛ لتكون قدرته عالية لفهم واستيعاب أحداث القصة، فإذا كانت أحداث القصة تدور في الصحراء، على سبيل المثال، فإنها «يجب أن تعطي الشعور بالوحدة والسكون والتيه واللامبالاة بالزمن، وقسوة الحياة وشظف العيش، إلى جانب الطباع الفطرية التي لم تفسدها الحضارة بعد. والقصة التي تدور أحداثها في القرية يجب أن تعطي شعوراً بجمال الطبيعة والطمأنينة والحياة الساذجة، وما في القرية من تعاون وتعارف ورتابة في الحياة تجعل الأحداث تسير ببطء. . . وإذا

(1) Zena Sutherland, P.21.

جرت أحداث القصة في البحر يجب أن تعطي الشعور بجبروته، وعدم الطمأنينة إليه، والحنين للأرض مستقر الإنسان»[1].

5 ـ الأسلوب: ونعني به أسلوب كتابة القصة الذي من خلاله وعن طريقه ينقل الكاتب فكرة القصة وحبكتها إلى صورة لغوية فنية مناسبة. والكاتب الجيد هو الذي يكون أسلوبه في الكتابة هو «الأسلوب المناسب للحبكة، والموافق للموضوع، والموائم للأفكار، والملائم لشخصيات القصة، وهو الذي يخلق جو القصة ويظهر الأحاسيس فيها»[2]. وتتمثل قدرة الأسلوب وقوته في «إيقاظ حواس الطفل وإثارته وجذبه، كي يندمج في القصة عن طريق نقل انفعالات الكاتب في ثنايا عمله القصصي، وتكوين الصور الحسية والذهنية المناسبة»[3]. ويجب على كاتب الأطفال أن يختار الألفاظ الرقيقة، الخفيفة على السمع واللسان، الشائعة الاستعمال لسهولة نطقها وقصرها أحياناً، حتى يتمكن الطفل من فهم القصة دون مشقة، ويمكن للمؤلف أو الكاتب دراسة واستشارة قاموس الطفل اللغوي؛ ليتعرف على مناسبة الألفاظ للمرحلة العمرية التي يرغب في كتابة القصة لها. ويستطيع الكاتب أن يكتب قصته بعدة طرق منها:

آ ـ الطريقة المباشرة: وهي أن يتولى الكاتب عملية سرد الأحداث بعد أن يتخذ لنفسه مكاناً خارج أحداث العمل القصصي، كما هو الحال في بعض القصص التاريخية.

ب ـ طريقة السرد الذاتي: ووفقاً لهذه الطريقة، فإن الكاتب يكتب عمله القصصي على لسان أحد شخصيات هذا العمل، كما هو الحال في قصة «جزيرة الكنز».

جـ ـ طريقة الوثائق: وفيها يقدم الكاتب القصة عن طريق عرض مجموعة من الرسائل واليوميات، أو يستخدم لذلك بعض الوثائق المختلفة.

والملاحظ في قصص الأطفال أن معظم المؤلفين والكتّاب يستخدمون الطريقة المباشرة، وطريقة السرد الذاتي لسهولتها ومناسبتها للأطفال. ومهما تكن

---

(1) علي الحديدي، ص119.

(2) نفس المصدر، ص124.

(3) أحمد نجيب، ص77.

الطريقة التي يختارها الكاتب، فإن طريقة عرضه للمعلومات أو لمضمون القصة يبقى لها أثر كبير على نفسية القارئ الصغير. والكاتب الملم بدقائق الكتابة للأطفال وطرقها وفنونها، بإمكانه نقل ما يريد نقله من آراء وأفكار ومعلومات إلى الطفل بأسلوب مناسب، ولغة واضحة، ومفردات مختارة اختياراً جيداً، لتناسب المرحلة العمرية المقدم لها العمل القصصي.

وهناك عدة اعتبارات يجب مراعاتها في الأعمال القصصية؛ مثل التوازن بين مراحل القصة المتمثلة في المقدمة والعقدة والحل، بحيث لا يطيل في مرحلة على حساب مرحلة أخرى، فيجعل القارئ يشعر بالملل والنفور من القصة، ويبتعد عن قراءتها. وعنصر التشويق هو من العناصر اللازمة بل الأساسية في أي عمل قصصي ومن خلاله يستطيع المؤلف شد انتباه القارئ للقصة، وكذلك العنصر النفسي «الذي يجعل القصة تعيش في كيان الطفل، وتعيش له، وتصبح جزءاً منه: فالقصة التي تعيش دائماً مع القارئ أو السامع فيها قدر كبير من مادة إيجابية هي العنصر النفسي»[1] وكذلك فإن المؤلف يجب أن يبتعد عن الأسلوب الخطابي المباشر في تقديم الأفكار والتجارب والمعلومات المختلفة، بحيث يقدمها من خلال أحداث القصة وفي سياقها، ليجعلها تعيش مع الطفل فترة طويلة.

---

(1) علي الحديدي، ص127.